

## بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

## ١ - دمشق

يا صديق صاحب الرسالة

أحسبك رأيت من قبل دمشق فأتيتك مرآها ، ونفحتك  
رأياها ، وآنتك ذكراها ، ودارت بك منازلها وطرقها بين  
الماضي المجيد ، والحاضر المجهود ، والمستقبل النشود . ولعلك أشرت  
من قاسيون على البلد الجليل تحيط به الحدائق الشجرية متصلة بين  
البرية والنوطة فسرحت الطرف والقلب في مرأى جميل ومنظر  
يهيج . ولا ريب رأيت بردى يتطن الوادي ، ويتسم الجبل ،  
وينسرب في شرايين المدينة فيسرى في دورها ومساجدها  
وجاماتها وشوارعها ، وتسمع أحيانا خيره في جوف قناة أو  
جدار لا تدين مآناه ومذهبه . ومن قبل قال ياقوت :

« فقل أن تمر بمخاطب إلا والماء يخرج منه في أنبوب إلى  
حوض يشرب منه ، ويستقي الوارد والصادر . وما رأيت بها  
مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاه إلا والماء يجري في بركة في سخن  
هذا المكان ، ويسح في مبيضته »

وأحسبك يا أخي مهتت بمآهدها فأحسست وقدة بين  
الضلوع ، أو طرحت كما يقول البحترى تقلا من الدموع  
أدخلت إلى الجامع الأموي من باب جيرون ورأيت في الطريق  
المفضية إلى الباب صفا من العمدة العادية ، وتمتلك القرون تنسخ  
القرون ، والمصور تحطم المصور ، وولجت الباب العظيم إلى الصحن  
الفسيح فالتفت إلى شمالك فرأيت سوز الدور والأشجار والأنهار  
مصورة بالفسيفساء منذ عهد الوليد . ثم ملت إلى اليمين فدخلت  
الجامع ترعك العمدة العالية الضخمة تمتد في صفوف مديدة ، ورأيت  
أمام القبلة قبة النسر الشاغحة ترمي بما أشرقت على التوحيد في  
محرابه ، وأظلت الحق في جماله وجلاله

وما أحسبك رقيت في المنارة الشرقية ، وشهدت في مرتفائك  
حجرة يقال إن النزالي كان يمتكف فيها ، ثم بلغت القعة بمد  
جهد نجمة أمامك المدينة ، وزويت الأرض كأنك تطالع منها

صورة في رقعة نقلت :

صعدت في قمة التاريخ مأذنة لها من الحق والتاريخ أحجار  
فاذا تركت الجامع الكبير فهناك مشاهد أخرى عظيمة ،  
وذكرات جليلة

— هل مهتت بالرجل الصالح نور الدين محمود ثم البطل  
المجاهد صلاح الدين يوسف ؟ هل وقفت على ابن أيوب . نقلت :  
فيا لك قبرا على قبره نظل العقول به في سفر  
ويا لك قبرا كمين البصير يحوى العوالم منها صغر  
وهناك المدرسة العادية وبها المجمع العلمي اليوم ، والمدرسة  
الظاهرية حيث ضريح الملك الظاهر بيبرس وبها دار الكتب ،  
ودار الحديث الأثرية وكان من ترأها العالم التقى الذي لم تأخذه  
في الحق رغبة ولا رهبة عبي الدين النواوي . ولا تزال حجرة  
بها مرفوعة . ويقول بعض المحدثين ولعله ابن حجر :

وفي دار الحديث لطيف معنى أطوف حول منناه وآوى  
لعل أن أصيب بحجر وجهي مكاناً منه قدم النواوي

وهل صعدت في الصالحية إلى ضريح عبي الدين بن عربي  
أم نفرت من هذا الشيخ الغريب واللغز المجيب ؟ على أن يجانبه  
بطلاً من أبطال الجهاد وسيفاً من سيوف الجلاد : الأمير عبد القادر  
الجزائري . وإن أردت مزار الرجل العالم الصالح الصوفي الشاعر  
ذي اللقب الجميلة وملاحب التاليفات الكثيرة للشيخ عبد الغنى  
النابلسي فليس بعيداً من ضريح عبي الدين تسلك إليه طريقاً مقفرة  
بها مدارس دارة ، منها المدرسة القمرية

فاذا صعدت في الصالحية فهناك من الآثار ما يشق تعداده :  
مدارس ومساجد ومستشفيات ، وهناك جامع الحنابلة الذي قرأ به  
الدهبي وابن قدامة وغيرهما من كبار العلماء ، والمدرسة الضيائية  
وكانت تحفظ بها خطوط كبار المحدثين وهي اليوم كتّاب ، حتى  
ينتهي الصمود إلى مقبرة الصالحية حيث قبر محمد بن مالك النحوي  
في قبور كثيرة للعلماء والكبراء

وفي أطراف المدينة مشاهد كثيرة للصحابة فن بدمهم . ولا  
تنس وقفة على قبر بلال في مقبرة الباب الصغير لترى الأذان  
مضمرأ في كتابه ، وتسمع الصوت مكتوناً في نايه ، بل نسمه

ورأيت لها في القمر آيات ؛ يتمتع بنا الوادي بين الجبال والأشجار ، ومياه بردى تسيل بها ربوة ، أو يوسرس بها ثعب ، أو يتغنى بها بستان ، فلا تفتأ تسمع منه حديثاً يؤلف مع حفيف الريح موسيقى هذا الجمال الفتان ، والوادي يدور بنا دوراته ، والقمر يلاعبنا بطلمانه ، عن اليمين والشمال وأمام وخلف . وللقاب بين ذلك مضطرب ، وللشعر مذهب أى مذهب . كان يخيل إلي أن هذه المياه الترابرة حُزَم من الأشعة ، وأن أشعة القمر رشاش من بردى ، وأن هذا النسيم العطر مزيج من الماء والضيء ينضح وجوه السابلة : شعر تفيض به الأرض والسما ، وسحر يفتته الماء والهواء ، وإلهام يفيض به الجنان ، وبمجز عنه البيان يا صديقي قد صدق البحترى إذ قال :

إذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا  
يمسى السحاب على أجيالها فرقاً ويصبح التبت في صحرائها بددا  
قلست تبصر إلاوا كفاً خضلا أو يانماً خيضراً أو طائراً غردا  
دمشق ٢٢ تموز ١٩٣٧ عبد الوهاب عزام

## مطبوعات

لجنة التأليف والترجمة والنشر هذا الشهر

الرقم	اسم الكتاب
١٨	أخبار أبي تمام للصولي
٢٠	أمراء البيان للأستاذ محمد كرد علي في جزئين
١٥٠	النقض في المواد المدنية والتجارية للأستاذين حامد فهمي ومحمد حامد فهمي
١٥	الطرائف الأدبية ويشتمل على جملة دواوين شعراء لم يسبق نشرها منها ديوان الصولي والمختار من دواوين المتنبي والبحترى وأبي تمام للإمام عبد القاهر الجرجاني

وتطلب هذه الكتب من اللجنة بدارها رقم ٩  
بشارع الكرداسي ببابدين ومن المكاتب الشهيرة

جهيراً مدروباً يملأ الفضاء ، ويبلغ عنان السماء « كالخط يملأ مسمى من أبصرا » أو كإشارات الموسيقى خطوط في البصر ، ونغمات في الأذن ، ووجد في القلب . وهل الأذان في الشرق والمغرب إلا صوت بلال مردداً قد بقى في القبة الزرقاء صدى توالت رواته واتصلت نغماته ؟

\*\*\*

وهل جُنت في النوبة تحنو عليك أشجارها ، وتفرق عليك ظلالها ، وتطالمك من بين النصور شمسا ، وتنادى بك مسالكها بين الزروع والأشجار :  
سقى الله أرض النوطتين وأهلها فلي يجنوب النوطتين شجون وهناك ضريح سعد بن عباد قد اعتزل الناس في ممانه ، كما اعتزلهم في آخر حياته :

وهل سرت إلى دوما ومررت بجوهر فذكرت قول القائل :  
إذا افتخر القيسي فاذا كر بلاه بزراعة الضحاك شرقي جوبرا  
أو قول الأمير شكيب أرسلان في الصديق الأديب الشاعر خليل مرهم بك :

« وإليه تجي جوبر وكنيسها »

\*\*\*

يا أخي وكيف تجيش الفكر وتنبع الدكر حين يقترب المسافر من المدينة الخالدة فيبقى نضارتها ويجد روحها عند الهامة . فاذا أجاز إلى دُمر هناك بردى عن اليمين والشمال متدفقا في ظلال الأشجار — أشجار الحور الباسقات — والله مجلس على بردى تدوب في مائه النظرات ، وتساقط عليه من الحور نغمات . فاذا بلغت الشاذروان فتممك تعرف دمشق ، وتعمت أخلاطاً من الراويح الطيبة أمدت بها الأشجار والأعشاب ، روايح يعجز عنها الوصف إلا أن يسميها « نفحات دمشق » . وهل جلست بالربوة فسمعت المعجبين بها يقولون : إنها الربوة التي ذكرها القرآن الكريم في قوله : « وأوتيناها إلى ربوة ذات قرار ومعين » هناك بردى سبعة أشهر تجرى في الوادي وعلى الصدفين وفوق الجبل . ويخر من نهر يزيد — وهو فوق الجبل لا يرى — شلال على الربوة لا يمل الشاهد مرآه ومسممه

أما أنا يا أخي فقلت أمل التردد بين دمشق ودُمر أجد هناك جمالاً لا يمد ، وسجراً لا ينفد . وقد رُدت هذه المشاهد مرات ،